مدينة الغرب

الغرب (بفتح الغين والراء) نوع من الشجر الرخو ، ينبت على ضفاف الانهار ويكثر على الفرات في مدينة دير الزور ، احدى مدن الاقليم الشمالي . يتساءل السكان عن سبب وجودالغرب بلهجة تنم عن الاحتقار واللامبالاة ، ولا يعرف احد منهم لماذا ينبت غزارا غابيا وكيف ينمو باستمرار يبعث على الدهشة . ولعل مرد وجوده الى ان التربة تريد ان تعبر عن قوة خصبها وريها وامتلائها ، فتدفع هذا الشجر لينتصب حزينا صامتا ، ملقيا ظلاله الداكنة على الشواطيء الرملية . يخيل اليك وانت تتأمله انه لم يكن سوى نتيجة روح انثوية في طبيعة الارض ، او نتيجة عبث قديم مبهم لتفاعل التربة . فالغرب يشبه نمطا خاصا من الرجال كانوا نتيجة قوة باطنية تدفعهم ، فيفرغون ايامهم بلا سبب معذبين ضائعين بين الخبز والخمر والاسف ، يلقون ظلالهم القاتمة ثم يرحلون ، فاذا بهم عبث حقيقي حين نعبر الحياة عن خصوبتها ونرفها في النطاق الانساني . ان الامتلاء الشديد يبحث دائما عن متنفس له، فيتدفق الى الخارج فكأن الحياة تتخلى احيانا عن جديتها الصارمة ، وتزيح عن اعماقها ضغط الثراء الخانق عن طريق الترف . ومن الترف ينشأ الفن . ولكن الفن سرعان ما يلتصق بالحياة ذاتها بكل جديتها ورموزها الابدية ، فيتحول الى مأساة عذبة مترنمة ، تغني الموت والضياع والرتابة كما تغني الاحداث الايجابية من فرحة للميلاد ولهفة ومفاجآت ، لان الفن لا يتقيد بالعالم الخارجي بل يتلمس ايضا صور الجمال الداخلي ويستقصي جذوره الضاربة في الانسان والطبيعة ، الغرب فن الارض وبعض الرجال فن الحياة ، وكلاهما تعبير عن جمال حافل .

وعندما تلهث الطرق المعبدة بالاسفلت المحاذية للنهر ، في اوائل الصيف ، بسبب اشعة الشمس المسعورة ، ينثر الغرب فتاتا ابيض يتساقط بطيئا كالثلوج ، ويحسب الناظر الى الشجر انه يبكي بكاءه الموسمي ذارفا دموعا من القطن . ويقول الشيوخ المعمرون ان الغرب كان يملأ الوادي كله ، حيث تقوم المدينة ، الا ان البرد والحاجة وعبث الانسان تضافرت جميعها ففتكت بغاباته العظيمة ولم يبق منه الا تجمعات صغيرة على ضفاف النهر كانها فلول هاربة من معركة خاسرة .

اما المدينة فقد تلاصقت بيوتها الكئيبة الداخنة ، قابعة في بطن الوادي العريض وتقاذفت التلال الرمادية الجرداء على اطرافها صاعدة مجهدة كأن هنالك قوة طموحة تصعد بها الى الاعلى ثم يدركها التعب فتقف على مضض . وتنحدر هذه التلال حتى تغيب في جوف الصحراء بينما يأخذ نهر الفرات طريقه على مهل ، فيشطر المدينة مؤلفا بعض الجزر الكبيرة يسميها الاهالون (حويقة) او مؤلفا بعض الجزر الصغيرة ويسمونها (حويجة) . ولقد ظلت دير الزور منطقة مهملة طيلة العهود السابقة ، فانتشر فيها البؤس والبطالة والجوع ، وتعرجت شوارعها الضيقة الوسخة ، يتطاير منها الغبار والذباب. وتحس بالزوجة كريهة انى سرت ولكنك تعتاد كل هذا وتألفه. والمدينة غصت بمقاهيها الكثيرة التي تلفت النظر ، فلا تكاد تخطو بضع خطوات حتى تتعثر بمقهى مكتظ في كل ساعة . ويسرع الرجال الى هذه المقاهي يحتسون الشاي ويصرفون اوقاتهم بلعب الورق والثرثرة والضحك والتدخين والاحلام ثم يسكتون فجأة يعتصرهم الم غامض ، فتتصلب وجوههم الخشنة القاسية . واذا استطعت ان تستشف ما وراء الوجوه ، وتنظر الى دخائل النفوس لادهشتك حقيقة لا تتوقعها . ان الانسان هناك يمثل توزعا قاهرا بين عالمين : عالم الصحراء وعالم النهر . فالصحراء باتساعها الرملي المتموج ، وغريزة الحرية المتأصلة فيها ، تغذيه بنبل عريق ومثل قديمة وامتداد متحرر ، والنهر باستمراره الظافر المجهول ، وبالنسغ الدائم الذي يحمله ، يهبه القدرة على الاستمرار وقهر العطش . فالرجال يظهرجوهرهم الانساني حين يحملون جذوات الصحراء التي لا تنطفيء ، ويمتلئون بالخصب المترف حين يغمرهم النهر . فهم احفاد البداوة العربية الاصيلة في جانب ، وفنانون حقيقيون في جانب اخر . وبصورة ادق هم قلق خفي مستتر بين العطش الخالد ، والاسراف المبذر ، فالعطش للصحراء المتقدة ، والاسراف للنهر وهو يدفع مياهه العكرة المحملة بالطمي والرمال والتراب ناشرا على منحدرات الوادي حقول القطن وحقول القمح الذهبية .

وليس الغضب ظاهرة تنفرد بها الصحراء . انه يتحرك في كل شيء، في الصحراء .. والنهر .. والناس. ويستوفك الغضب كل اصيل ساعة تقف على الجسر الكبير المعلق شاخص البصر الى الافق الغربي حيث تفرغ الشمس الغاربة ، من شرايين الشفق ، الوانها القزحية بين ثنايا الحمرة المشتعلة ، فتشعر ان المشهد كله لوحة حارة تحترق صورها رسام مثل « فان كوخ » . فالغضب نفسه يسوق الى المدينة سحب الرمال التي تلعب بها الرياح العاصفة فينقلب النهار الى شبه ليل تختلف الوانها الوحشية الحربائية ، وتتسلل الذرات الدقيقة تستنشقها المواطنون فيختنق الارض والشيوخ والاطفال . وتزار العاصفة الرملية ضاربة تجمعات الغرب فيتكسر قسم منه وتقتلع جذوره ثم يهوي الى النهر .. والغضب نفسه يثير النهر الهادىء فيفيض حانقا على النحو الذي صوره الشعراء القدماء ، فيملأ المنخفضات ويتلاطم بقسوة على جذوع الشجر حافرا فجوات متخشبة حتى يسحب قسما اخر الى امواجه المزبدة . والغضب نفسه يتحرك في اعماق الرجال والنساء . فالرجال الذين يصمتون فجأة يستحيلون كذلك فجأة الى تضحية جاهلية وصرامة للفكرة ، وجبروت للمبدأ ، وعنف وسرعة للعمل واذا بهم يحتازون من الطليعة العربية صفوف الصدام المباشر . والنساء اللواتي يقبعن في بيوتهن المغبرة يزددن شعورا بالاستقلال واحساسا غامرا بالذات . وقد يقدمن على الانتحار . ولهن في ذلك طريقة عنيفة اذ يصببن البترول على انفسهن ويحترقن . ولا تفسر الاسباب النسائية من عاطفية وعائلية هذا الانتحار بقدر ما يفسره الغضب الكامن . فهو في وجدانهن ضرب من الاحتجاج الداخلي العاصف عرفته سيدات العرب القدامى. ولهذا يترك الرجال لهن حرية خاصة برغم قسوة التقاليد لانهم ادركوا ان نساءهم سيدات لا جوار . أليست السيدة تقف على الطرف المناقض للجارية ؟ وما اكثر الجواري واقل السيدات !

يمر الزمن رويدا رويدا .. يجري كالنهر بلا نهاية .. وتجثم فلول الغرب الرخو على الضفاف لتكون وقود الشتاء الدائم

عبد الباسط

كل الحقول جمرة ، من الذهب
وانت أحطاب الشتاء ، يا غرب
سرب الفراش ، كالوشاح ، طار
والتمعت سنابل النضار
واحترقت مواقد النهار
أغنية الحصاد ، هزها الطرب
وفي الجباه ، قطرة من التعب
وخلف كثبان الرمال ، غار
ظل النخيل ، وارتمت قفار
وبرتقالي اللظى ، شرار
فضج ، في الصحراء ، ينضح الغضب
العطش القديم ، فيه ، والسغب
والشفق الكظيم ، والاوار
وانت تابوت الذهول ، ياغرب

*

من حزك الريح ، وايقظ النغم ؟
وفي الدوالي ، من يعنقد العنب ؟
تلطخ الغيم ، وعصب القمم
وفي فم الوادي ، تأوه القصب
من اشعل الحرف ، واطعم اللهب ؟
وزوق الالهام ، في مجرى القلم ؟
مع الدروب ، تصعد التلال
ساهمة صخورها الرملية
مجهدة الشوق ، يلفها الكلال
وتلتقي الظلال ، بالظلال ، بالظلال
راكضة امواجها الخفية
والنهر يجري ... هادىء الشطآن
مضطجع ، في سرة الوديان
يخزن في أعماقه الطينية
ما يغسل المروج ، والاحزان
يبارك الحياة ، والانسان
يحمل ، في عبابه ، الزمان
في رحلة ، طويلة ، دهريه
مبهمة الحنين ، والاسرار
لا عودة منها ، ولا اخبار
واوصدت ، ابوابها ، السماء
والتفت الحياة ، بالاحياء
وانت فطريّ الجذوع ، ياغرب
تنهض ، من جنازة المساء
تدفن اشلاء الليالي ، والحقب

*

كان المساء لوحة ، ناريه
وانسرحت جدائل ، قصيّه
من كل لون ، لاهب ، يفور
بين ثنايا الشفق المسعور
واساقطت دموعك القطنيّه
الليل يستلقي ، على المدينه
تبعثرت نجومه الحزينه
وفي السفوح ، تقبع البيوت
كأنها مغائر ، منسيّه
وعشعش القنوط ، والرجاء
على الذبالات التي تموت
وانفرزت اصابع ، وحشيه
في مقل الشوارع القفراء
فانفجرت مصابح شوهاء
واغمدت ، نصالها ، الاضواء
تفقأت مصابح الطريق
فانداح عمق ، للظلال ، وانسرب
دم ، يضيء الشارع الغريق
فتهرب المنعطفات ، يا غرب
تلك خيول الليل ، قد تفيق
تسرع ، في الارض ، رتيبة الخبب
وانت ، في جذورك السمقيّه
ساهرة ، احزانك الشجيّه
وتلتوي اغصانك الطريّه
تندف اكفانا ، وتنثر الزغب
وتنزوي غاباتك الشقيّه
تنشب في الشواطىء الرمليّه ،
خيولها ، فرسانها ، من الخشب

*

يثرثر الرجال ، في المقاهي
ويمضغون لعنة الاله
يدخنون ، يضحكون ، في نهم
ويصمتون فجأة من الالم
ضحكاتهم جوف وصمتهم صخب
قد عصروا عروقهم ، مع العنب
وافرغوا ايامهم ، بلا سبب
للخبز ، والخمر ، وأنياب الندم
واقتلعوا اقدامهم ، من السأم
والزمن الصخري ، راسخ القدم
جبهاتهم ، نافرة العروق
أكفهم ، داكنة الشقوق
من معول السنين ، والايام
وفي رماد التبغ ، والحطام
يهرول الحلم ، ويفغر العدم
ويستحث ، خيله ، الظلام
مجنونة السباق ، والجماح
تركض ، في عيونها ، الاشباح
وتفرغ الكئوس ، والاقداح
وتقبع النساء ، في الزوايا
لفارس ، مجلجل المطايا
شرفاتهن ، رحلة الشباب
تطايرت ورديّة السحاب
تسللت ، من فجوة الغيوم
واغتسلت ، في طيبها ، النجوم
الحب بستان ، وفيء دار
مسيّج الدروب ، والحقول
من يقحم الاشواك والاقدار
من يتحدى الليل ، من يصول ؟
ويقطف الوردات والثمار
وللجواري شبق العبيد
لا نزهة ، لا مرفأ بعيد
يرمقن كل لفتة خطايا
على رصيف ، آسن الزوايا
وانت ثلجيّ الفؤاد ، والعصب
تنام ، صمغي الجفون ، يا غرب

*

في الارض ، والانسان ، ينضح الغضب
وتنفض الرياح ادمع الغرب
جائعة ، عواصف الرمال
صارخة ، مشاعر الرجال
وفي دمائهم من الصحراء
عراقة النبل ، وصفوة النسب
قد قبسوا كثبانها الجمرية
والتقطوا نجومها الفضيّة
وازدحموا ، في صبحها ، اضواء
وتقرع الاجراس ، ، للحريّة
تعانقت ، مبادىء ، على اللهب
المارد الاسمر ، غنّى وانتصب
والنهر يلقي زبد الشطآن
ينتزع الجذور ، والاغصان
وترتمي سيدة ، مسكينه
تقول : « ياعجائز المدينه
سرب الفراش ، كالوشاح ، طار
واحترقت مواقد النهار
النار ..؟ هذا جسدي للنار!!
حدثه عني ، ان تأوّه القصب
وانثرن مني حفنة على الغرب
وابصقن ، في جنازتي الملعونة
في قلبها التمرد الطويل
يمزق الاقنعة الغبية
رسالة الجيل ، يهز الجيل
رسالة الصحراء ، والحرية
هادرة ، بالبعث ، امة العرب
على سنا المشاعل الثورية
تجرف ، في طريقها ، الاسوار
ويرقص الاحرار للاحرار
وانتظمت قوافل الثوار
وانت احطاب الشتاء
يا غرب

حمص — عبد الباسط الصوفي